مقاربات اللغة الواصفة

("جوزيت ري ديبوف" أنموذجا)

الأستاذة مريم بويدارن[1]

"إن الكلام على الكلام صعب، قال: ولم؟ قلت: لأن الكلام على الأمور المعتمد فيها على صور الأمور، وشكولها، التي تنقسم بين المعقول وبين ما يكون بالحسّ ممكن، وفضاء هذا متسع، والمجال فيه مختلف، فأما الكلام على الكلام فإنه يدور على نفسه، ويلتبس بعضه ببعضه، ولهذا شقّ النحو، وما أشبه النحو من المنطق، وكذلك النثر والشعر وعلى ذلك".

أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة – الليلة الخامسة والعشرون.

المقدمة:

كتاب اللغة الواصفة (Le métalangage) لجوزيت ري ديبوف (Josette Rey-Debove)، ينتمي بمباحثه المتنوعة والرصينة، إلى حقل المتالسانيات "هو كتاب عمدة، مؤسس من وجهة نظر تاريخية وإبستمولوجية، يدرس البعد السيميائي للغة، ويخلق مفهوما جديدا هو الإيحاء ذاتي الإحالة" (La connotation autonymique)[2].

يتناول الكتاب موضوع اللغة الواصفة الطبيعية (Le métalangage naturel)، التي تتمثل في الخطاب العادي اليومي، المنتج حول اللغة، بصورة تلقائية. لا تحتاج هذه اللغة الواصفة إلا لكفاءة متكلم اللغة العادي، ولها كل عيوب وامتدادات اللغة اليومية، إنها تتحدث عن اللغة وتصفها بالطريقة نفسها التي تتحدث بها اللغة العادية عن العالم.

تميز المؤلفة بين مفهومين أساسيين، بين اللغة الواصفة المصورنة (Le métalangage formalisé)، تمثلها الخطابات المتالسانية العلمية، المؤسسة حول الظواهر اللغوية مثل لغات العلوم، ولغات القطاعات المعرفية المتخصصة، والنظريات اللسانية... وبين اللغة الواصفة الطبيعية، وهي نتاج النشاطات المتالسانية، التلقائية واللاواعية، يتعلق الأمر بظواهر، تبرر ما يخلقه مستعمل اللغة من مسافة بينه وبينها.

---

[1]- باحثة في المصطلحية من المغرب.

[2]- Pour josette Rey Debove, Simone Delesalle, Revue « Histoire, Epistémologie, Langage », Année 2005, Vol27-n°27-1.p 5.

ينصبّ النشاط اللساني الخالص في عملية التواصل على المعنى، لا على الشكل الذي يظل شفافا وغير مرئي ومبعدا، عندما لا يواجه التواصل أي عائق، يحول دون نجاحه، لكن اللغة نفسها يمكن أن تكون موضوعا للكلام وتدور على نفسها في الحالة الطبيعية، عندما تصبح معتّمة، وأقلّ شفافية.

إن الكتاب بما يقدمه من مفاهيم وأفكار ومصطلحات جديدة، يمثل مغامرة علمية جريئة، لاختراق هذه المنطقة الساخنة بين المنطق واللسانيات. لقد ظلت اللغة الواصفة، نقطة الالتقاء النموذجية التي جمعت آراء المناطقة واللسانيين عبر التاريخ، اهتم بها نحاة مثل "بانيني" (Panini)، وسيميائيون مثل "أوغسطين" (Augustin)، وفلاسفة من أمثال "فورفوريوس" (For furius) و"ساليزوري" (Salisbury)، و"شيرزوود" (Shyreswood)، و"أوكام" (Occam).

والكتاب بلغته العلمية الرياضية الموغلة في التجريد، لا يقدم نفسه بيسر للقارئ العادي. إذ تجسد لغته أعلى مستويات الكتابة في هذا المجال الواصف، بشفافيتها، ودقتها، وصرامتها، وانكفائها على نفسها، في مستواها العلاماتي، الرمزي الخالص. هو كتاب موجه إلى نخبة القراء من اللسانيين والمترجمين والسيميائيين والمناطقة وفلاسفة اللغة والمنظرين في مجالات الأدب والبلاغة، وإلى كل الذين ينتجون نصوصا، حيث التعبير، يصبح هو المعنى.

بنتْ المؤلفة أفكارها، ورؤيتها للغة الواصفة على خلفية فلسفية ورياضية ومنطقية، عميقة وثرية، حيث لا يمكن تمثل مفاهيم الكتاب تمثلا جيدا، دون استحضار هذه الخلفية.

وقد استأثرت "اللغة الواصفة"، بأبحاث المناطقة وفلاسفة اللغة (حلقة فيينا) خاصة مع "كارناب" (Carnap) و"تارسكي" (Tarski) و"موريس" (Mauris) و"فنجنشتين" (wittgenstein)... وتعود أصول هذا الاهتمام إلى "هلبير" (Hilbert) وأزمة الأسس في الرياضيات. فاللغة الواصفة المنطقية (Métalogique) هي لغة، تهتمّ بوصف الأنساق الأكسيوماتية الصورية، والتساؤل عن طبيعة الحقيقة والصدق، واختبار مصداقيتهما في اللغة – الموضوع (Langage-Objet).

حاولت أن أعرض في هذا البحث بكل وضوح أهمّ الأفكار والتصوّرات التي جاء بها كتاب "ري ديبوف" (Rey-Debove) دون أن أغفل أيّ فصل من فصوله، أو مبحث من مباحثه.

لقد كشفت لي هذه المحاولة الخجولة أن الترجمة ليست بالأمر اليسير، بل هي فعل ثقافي أنثروبولوجي غني وواسع، ترفده معرفة رصينة بتوجهات المؤلف، وبمجال الكتاب، وخلفيته النظرية والمنهجية، بالإضافة إلى معرفة عميقة باللغتين: المصدر والهدف.

من المصطلحات المركزية التي ناقشتها المؤلفة في هذا الكتاب مصطلح "المعجم الواصف" (La Métalexique)، وهو حقل جديد، يدرس المفردات ذات الكثافة المتالسانية العالية، ميزت فيه بين "مفردات شيئية" (Mots mondains)، تحيل على أشياء الواقع خارج لساني، و"مفردات محايدة"، و"مفردات متالسانية".

كما تناولت "العلامة ذاتية الإحالة" (Le signe autonymique) وهي العلامة، التي تحيل على نفسها، على مستواها التعبيري، حيث يصبح التعبير دلالة.

ويحتل مفهوم "الجملة المتالسانية" (La phrase métalinguistique) موقعا متميزا في متن "ري ديبوف"، وتخضع الجملة في الخطاب الواصف لقواعد التركيب، ولشروط المقبولية التي تقيد الجملة العادية في الخطاب العادي، غير أنّ الإحالة فيها تختلف، إذ لا تحيل هذه الجمل إلا على المستوى اللغوي الخالص، ولهذا تطرح إشكالات تتعلق بالصدق والدلالة والمرجع.

وتقف الباحثة عند مفهوم آخر لا يقل أهمية هو مفهوم "الإيحاء ذاتي الإحالة" (La connotation autonymique) حيث ظلال المعنى وإيحاءاته ليست شيئا آخر غير الشكل اللغوي والتعبير والعلامة.

وللبحث في مستويات اللغة الواصفة، معجما وتركيبا ودلالة، ودراسة خصائصها وما يميزها عن اللغات الواصفة المنطقية والرياضية، استوحتْ المؤلفة المنهج السيميائي، خاصة مع "بارت" (Barthe) و"هلمسليف" (Hjelmslev) مع تطوير هذه السيميائيات، لتستوعب التجليات اللغوية المركبة للعلامة المتالسانية و"الذاتي الإحالة" (Autonymie). وقد عمدت في ختام هذا البحث إلى تلخيص أهم الاستنتاجات التي توصلت إليها، وعرضت جملة من الانتقادات يمكن توجيهها للكتاب.

فما هي الآفاق التي يفتحها البحث في اللغة الواصفة؟ وما علاقة اللغة الواصفة بالدراسة القطاعية المتخصصة؟ وما علاقة اللغة الواصفة بالحدّ والتعريف؟ وإلى أيّ حدّ استطاعت المؤلفة أن تقدم نموذجا علميا صارما للغة الواصفة الطبيعية، يماثل ويضاهي النموذج المنطقي والرياضي؟ أسئلة كثيرة وغيرها يثيرها البحث في اللغة الواصفة...

المبحث الأول: إشكالية اللغة الواصفة بين المنطق واللسانيات :

1- تعريف اللغة الواصفة :

تتحدث اللغة عن العالم: عن الموضوعات المادية الملموسة، والمفاهيم المجردة والتجارب، وتسمح بالفهم والإنتاج، كما تسمح بأن تكون موضوعا للتأمل والتفكير: إنها الوظيفة الانعكاسية للغة (La fonction réflexive) هذه الوظيفة تجعل اللغة قادرة على البحث عن نفسها، والبحث في طرق اشتغالها، تنكفئ اللغة على ذاتها فتدرس مفاهيمها ومصطلحاتها ومناهجها، وطرق إنتاجها للدلالة.

وتتمثل هذه الوظيفة الانعكاسية في قدرة مستعمل اللغة على مراجعة خطابه بطريقة تلقائية وبسيطة. إنها الوظيفة التي سماها جاكبسون بالوظيفة المتالسانية.

تشير "اللغة الواصفة" إلى كلمات وتعابير تصلح للحديث عن نظام اللغة. إنها نسق من المصطلحات، موضوعه هو نظام اللغة نفسها. إن كلمات مثل الفعل والاسم والجملة، تتحدد مرجعياتها بالإحالة على وحدات اللغة.

ومصطلح "اللغة الواصفة" (Métalangage) في اللغة الفرنسية مصطلح مكون من السابقة "ميتا" (Méta) ومن "لغة" (Langage)، ويقدم المعجم الصغير لـ"روبير" (Le Petit Robert) شرحا للسابقة "Méta" على النحو الآتي:

"Méta" مفردة لاتينية، تعني التلاحُق، التغيير، والمشاركة، وفي الفلسفة والعلوم الإنسانية تعني هذه السابقة كل ما يتجاوز موضوعا أو علما ويشمله مثلا: "اللغة الواصفة" (métalangage)، "الرياضيات الواصفة" (métamathématique)، "الميتافيزيقا" (métaphysique) [1].

هذه السابقة ذات الأصل اللاتيني تشير إلى كل نشاط إدراكي معرفي، يأتي لاحقا في الدرجة الثانية.

وتتنوع دلالات مصطلح "اللغة الواصفة" (métalangage) حسب تنوع المعاجم اللسانية، وحسب الخلفية المرجعية المؤطرة. كما أن هذا المصطلح " métalangage" يتداخل مع مصطلحات كثيرة ومتنوعة تبتدئ بالسابقة "méta": "métalinguistique" – "métalangage" –"métadiscours" –"métacognition". فحصر مفهومه إذن وتعيينه يقتضي رسم الحدود الفاصلة بين هذه المصطلحات، وتحديد الحقل المفهومي الذي تنتمي إليه.

ويعرف "جان ديبوا" (Jean Dubois) "اللغة الواصفة" في معجمه بالقول:

---

[1] – مدخل Le petit Robert, Meta

" هي لغة اصطناعية، هدفها وصف اللغة الطبيعية. ومصطلحات اللغة الواصفة هي نفسها مصطلحات اللغة الموضوع، كما أنّ قواعد تركيب اللغة الواصفة، هي عينها قواعد اللغة – الموضوع (Langage-Objet). ومن نماذج اللغة الواصفة لغة اللسانيات والنحو، حيث يعمد اللساني إلى وصف كيفية اشتغال اللغة، ومن نماذجها أيضا خطاب المعجمي المهتمّ بصناعة المعاجم، وبوضع تعريفات للمفردات"[1].

يستعمل معجم "ديبوا" (Dubois) مصطلح "métalangage" بالدلالة نفسها التي يستعمل بها مصطلح "Métalangue"، أي باعتبارها خطابا ونشاطا معرفيا يأتي في الدرجة الثانية من تراتبية المعرفة.

وفي معجم "جورج مونان" (G.Mounin) نقرأ: "اللغة الواصفة مصطلح قديم، وضع على غرار نموذج اللغة الواصفة المنطقية (Métalogique)، واللغة الواصفة الرياضية (Métamathématique)":

"إن اللغة الواصفة هي لغة اصطناعية علمية، تشبه نظيراتها في المنطق والرياضيات، مكونة من رصيد محدود من المصطلحات المعرفة، بطريقة دقيقة وصارمة، ومن قواعد تؤلف بين هذه المصطلحات ويكون هدفها هو الوصف العلمي للغات الطبيعية: اللغات–الموضوع"[2].

ويعلق "جورج مونان" بأن لا وجود لهذا الصنف من اللغة الواصفة، طالما أنها تشترك واللغة الموضوع في المعجم وفي قواعد التركيب، مما يخلق أشكالا من الالتباس والغموض، سعى المناطقة إلى تفاديها، عبر خلق المنطق الواصف.

إن اللغة الواصفة إذن هي الاصطلاح الذي يطلق على كل ممارسة علمية، تتخذ اللغة موضوعا لها، وهي لغة نموذجية عدد مصطلحاتها محدود، ومتجانس، وموجه إلى دراسة حقل معرفي مخصوص.

وهكذا يمكن أن تتقاطع اللغة الواصفة مع الخطاب الواصف (Le métadiscours) طالما أنه خطاب حول خطاب، وظيفته وصف القواعد التي تنظم كل ممارسة خطابية و"هو في النهاية خطاب حول اللغة"[3].

ويمكن أن نوسع الحقل الدلالي لمفهوم "اللغة الواصفة"، فيشمل كل خطاب منتج حول اللغة، هذا التعريف يجعل اللغة الواصفة تتقاطع مع الوظيفة المتالسانية، كما حددها "جاكبسون" (Jakobson).

1– La Rousse Grand dictionnaire linguistique de sciences du langage- jean Dubois et autres, p : 301.

2– Dictionnaire de la linguistique, Georges Mounin, Press universitaire de France 1974, p :213

3– La Rousse, Grand dictionnaire, p : 301.

"واللغة الواصفة ليست أبدا ثابتة ونهائية، بل هي تتبيّن وتتشكّل، حسب الإطار النظري، الذي يستوعبها، هذا الإطار النظري يعرف تحولات عميقة، عبر مسار التاريخ"[1].

إن كل مستعمل للغة، كيفما كان مستواه التحصيلي لمعارفه اللسانية يمكن أن يستعمل اللغة للحديث عن اللغة. ويكون هذا الاستعمال المتالساني تلقائيا، يمارسه مستعمل اللغة، أحيانا دون أن يكون على وعي به. يظهر هذا في الجمل المحكية، والأقوال المنقولة، والصيغ المباشرة، وغير المباشرة للخطاب (Discours direct et indirect). يمكن أن نميز إذن في اللغة الواصفة بين معنى عام شمولي تصنيفي ونوعي، وبين معنى خاص محدود تحييني. فعندما ننظر إليها كنسق ثانوي يتحدث باللغة عن اللغة، ويشمل هذا النسق مفردات متالسانية، وأخرى ذاتية الإحالة [2]. بهذا المعنى هي تحيل على ممارسة علمية وعلى توجه معرفي، يحدد نوع الخطاب.

لكن عندما يتمّ تحيين هذه الممارسة في الاستعمال اليومي للخطاب، بحيث تشير إلى كفاءة لغوية، يمتلكها المتكلم العادي، فنحن أمام مفهوم خاص ومحدود، يشير إلى الوظيفة المتالسانية.

"ومع ذلك فإن الأبحاث في هذا المستوى لم تصل بعد إلى تعيين الفروق النظرية الدقيقة بين هذين المجالين" [3].

والوظيفة المتالسانية، هي وظيفة لغوية، بواسطتها يجعل المتكلم السنن الذي يستعمله، موضوعا لخطابه، ووصفه، ولو من زاوية مخصوصة.

ومصطلح "المتالسانيات" هو أكثر المصطلحات تداخلا مع مصطلح "اللغة الواصفة"، لذا تنبغي إضاءته.

إن المنظور الوظيفي الذي يهتمّ باستعمال اللغة من طرف متكلمين يحينونها في سياقات معينة هو الذي أعطى أهمية كبرى للوظيفة المتالسانية ولهذا المستوى اللغوي الذي يصبح فيه الدال مدلولا، وحيث العلامة في ذاتها معنى، وجعل لهذه الوظيفة مكانة خاصة ضمن نشاط الذات المتكلمة.

"تمكننا القدرة المتالسانية من رؤية اللغة من الداخل، من مستوى لغوي أعلى، من أجل تجريدها وتأملها، بنفس القدرة التي نستعملها بها في ملاحظاتنا وطرق تعليلنا"[1].

---

[1]- Lexique des notions linguistiques, Frank Neveu, édition Nathan, HER- 2000, p :67.

[2]- "ذاتية الإحالة" ترجمة لمصطلح "Autonymie"، وسنفصل الحديث عنه في المبحث القادم، بما أنه من المفاهيم الجوهرية في الكتاب المدروس.

[3]- Analyse du discours métalinguistique, Mylène Perrault université de Montréal, Août 2006 ; p18.

وهناك من يؤطر هذه الوظيفة المتالسانية (métalinguistique) في مستوى نفسي وإدراكي أعمق، حيث يتعلق الأمر بالبنية الذهنية الإدراكية.

ويعرف "تشومسكي (Chomsky) (1979) "الحقل المتالساني بأنه ما يحيل إلى المعرفة التي يمتلكها المتكلم عن خصائص ووظائف اللغة"[2].

ثم هناك المنظور الوظيفي، الذي يرى بأن الوظيفة المتالسانية، هي المعرفة التي تمتلكها الذات المتكلمة عن بنية اللغة، ووظائفها، وطرق استعمالها.

يميز هذا التصور بين القابلية اللسانية لمعرفة شيء ما، وبين القدرة المتالسانية لمعرفة أننا نعرفه، إنه وعي المتكلم بالمعارف الثابتة حول اللغة، التي هي المعيار الأول.

هذا التصور يجعل اللغة موضوعا للتفكير، بل إنه يجعل الوظيفة المتالسانية جزءا من النشاط اللغوي للمتكلم (متأثرا بأفكار "بياجي" (Piaget)، وبالتالي فإن الفاعلية المتالسانية تتمحور حول تأمل اللغة، والنظر في طبيعتها ووظائفها.

ويرى "كولينسكي" (Kolinsky) (1986) "أن موضوع الوظيفة المتالسانية، وهو اللغة، ينبغي أن يكون من طبيعة خاصة، ليمكننا من دراسة خصوصية هذه الوظيفة، في علاقتها بباقي الأنشطة الانعكاسية، التي ننجزها حول باقي المواضيع أو السيرورات الإدراكية"[3].

إن المرجعية النفسية للوظيفة المتالسانية طورت البحث في هذا المجال باتجاهات مختلفة، وربطت المسألة بالوعي والإدراك.

فالخصوصية اللسانية النفسية لمصطلح الوظيفة المتالسانية أكثر شساعة، من الاستعمال الذي يعطيه اللسانيون لهذا المفهوم، يرى اللساني في المتالسانيات، كل ما يحيل على إعادة إنتاج اللغة، عبر علامات متالسانية، تترجم سيرورات تعكس المرجعية الذاتية للغة (autoréférenciation) في حين يبحث عالم النفس، في السلوك اللغوي للمتلكم، عن العناصر التي تسمح له بالكشف عن السيرورات الإدراكية للوعي، هكذا يدخل مصطلح جديد إلى الحقل المفهومي للغة الواصفة، هو مصطلح "المعرفة الواصفة" (métacognition)، وكثر هم الكُتاب الذين اعتبروا القدرات المتالسانية جزءا لا يتجزأ من الحقل العام الذي هو المعرفة الواصفة.

---

[1]- Le développement métalinguistique, Jean Emile Gombert, press universitaires de France, 1 ° édition 1990.

[2]- Analyse de discours métalinguistique ; p : 13.

[3]- Ibid, p : 13.

تحيل المعرفة الواصفة إلى كل المعارف التي تملكها الذات عن سيروراتها الخاصة، وإنتاجاتها، وإلى كل ما يتصل بهذه السيرورات كخصائص المعلومات، والمعطيات الملائمة لإدراك واستيعاب هذه المعلومات. هكذا نجد في الوظيفة المعرفية الواصفة حقلا مفهوميا يتكون من: "ذاكرة واصفة" (métamémoire) و"تعلم واصف" (méta-apprentissage)، و"انتباه واصف" (méta-attention)، و"لسان واصف" (métalangue).

إن المعرفة الواصفة نشاط متنوع الجوانب، فعندما ألاحظ مثلا أن الصعوبات المتعلقة بتلعم الظاهرة (أ) أكثر من الصعوبات المتعلقة بتعلم الظاهرة (ب)، وعندما يتبادر إلى ذهني أن أراقب "س" قبل أن أقبله كظاهرة، عندما أميز بين مجموعة من الاختيارات، عندما أفحص كل الإمكانات، فأنا أمارس نشاطا معرفيا واصفا. "إن "المعرفة الواصفة" (métacognition) هي مراقبة فاعلة، هي تقويم وقيادة وتنظيم للسيرورات الذهنية، في علاقتها بمواضيع الإدراك"[1].

المعرفة الواصفة أشمل من المتالسانيات، لأنها تضمّ كل المعارف، التي هي عبارة عن تأمل ذاتي حول حالات الإدراك والوعي، وهي قدرة الفرد على مراقبة وتنظيم سيرورة تفكيره وإبداعه.

"وهذا المفهوم يقترب كثيرا من مفهوم "بياجي" (Piaget) عن العمليات المعرفية التي تتمثل في قدرة المتكلم، على التحكم في معارفه الذاتية"[2].

ويوزع "جورج مونان" "المتالسانيات*"[3] على ثلاثة معان:

أ- كل ما له علاقة باللسان الواصف أو اللغة الواصفة (métalangue) (وتجدر الإشارة إلى أن معجمي "ديبوا" و"مونان" يستعملان معا "métalangue" بمعنى "métalangage".

ب- استعمال لغة لوصف لغة أخرى.

ج- بالنسبة للسانيين الأمريكيين الأنثروبولوجيين، فإن المتالسانيات تشير إلى كل ما هو مفارق للغة، أي الواقع غير اللساني، الذي يوجد خارج اللغة، مثل عالم الإحالات والمرجعيات، وعالم الأشياء المادية المتعينة، وعالم الدلالات الحافة، التي هي نتاج للثقافة والحضارة، والتي لا تفهم إلا بلغة الثقافة نفسها[4].

2- الإطار اللساني لإشكالية اللغة الواصفة :

1- Le développement métalinguistique, p : 17.

2- Ibid, p : 17.

3- Dictionnaire de linguistique, p :213-214.

4- Ibid, p : 213-214.

الوظيفة المتالسانية جزء لا يتجزأ من النشاط اللغوي والكفاءة اللغوية، حيث تتخذ اللغة من اللغة موضوعا لها، ويعتبر الخطاب اللساني النموذج الأمثل لهذه الوظيفة.

غير أن الوظيفة المتالسانية لا تنحصر فقط في المستوى العلمي الدقيق والواصف، بل هي كائنة في عمق الخطاب اليومي، والمؤلفة "ري ديبوف" تعطي للغة الواصفة مفهوما ينأى بها كثيرا عن التعريف الذي لها في المنطق والرياضيات. بل تجعلها قريبة جدا أو محايثة للغة التواصل اليومي.

فعندما يعلق المتكلم على الخطاب أثناء التواصل، إما بهدف التذكر أو الاسترجاع أو الفهم، وإزالة الغموض، أو عندما يسعى لأن يطابق خطابه مع ما يشير إليه، فنحن بإزاء الوظيفة المتالسانية.

هذا المستوى اللغوي تسميه المؤلفة مستوى لغويا واصفا، بل إن مفهوما للغة الواصفة يكاد لا يغادر هذه الحدود. حيث يمتلك كل مستعمل للغة القدرة على خلق مسافة بينه كذات للتلفظ وبين خطابه، كما يخلق مسافة بين خطابه وبين العالم كموضوع للتلفظ.

"تنهض اللغة بهذه الوظيفة المتالسانية المزدوجة؛ وظيفة وصف الأنساق السيميائية، غير اللغوية، كما أنها لغة واصفة للأنساق الرياضية والمنطقية، وهي لغة واصفة أيضا لكل الأنظمة، ولكل أشكال التعبير الدالة: إيمائية - حركية أيقونية - فنون تشكيلية وموسيقى...

فإذا كان لكل نظام من هذه الأنظمة، طريقته الخاصة في التعبير، فإن اللغة وحدها القادرة على وصفه، وفي المقابل لا يستطيع أي نسق غير لغوي من هذه الأنساق وصف اللغة.

الخاصية الثانية هي أن اللغة كنسق قادرة على وصف نفسها. "عندما تقوم لغة أولى مثلا، بوصف الأنساق غير اللغوية، أو بوصف لغة أخرى (L2)، فإن إمكانية التمييز بين الموضوع المدروس وأداة الدراسة، أمر سهل وممكن، لكن عندما تنكفئ اللغة على نفسها، وتنعكس، فإن مسألة الفصل تبدو صعبة، ويكون التطابق، بين الموضوع المدروس وأداة الدراسة أمرا فريدا"[1].

إن لغة معينة أولى (L1) تنطوي على نسق ضمني، يمكنها من الحديث عن نفسها، كما يحتوي هذا النسق الضمني على معجم مكون من كلمات متالسانية وأخرى ذاتية الإحالة.

---

[1]- Le métalangage, Josette Rey Debove, Le Robert 1978, p :1

"وتعتبر هذه الكلمات ذاتية الإحالة، المنتمية لجنس المتجانس اللفظي (homonymie) والتي تشير إلى نفسها، جزءا من معجم اللغة الأولى، ويخلق التجانس اللفظي لهذه المفردات غموضا كبيرا في الخطاب، وكان من أبرز الإشكالات التي أثارت اهتمام الفلاسفة"[1].

وتتجلى الإشكالات الدلالية في الخلط الذي يمكن أن يحدث بين العلامات الدالة على الأشياء والعلامات الدالة على العلامات، ونجد الخلط بين هذين النسقين المعجميين المتجانسين عند مستعملي اللغة كما نجده عند اللسانيين.

يعتقد البعض أن النحو والدلالة الذين تستعملهما اللغة في حديثها عن العالم، هما نفسهما المستعملان، عندما تتحول اللغة إلى الوظيفة الانعكاسية.. وأن استيعاب الإشكال الذي يطرحه كل خطاب حول اللغة، سيسهل هذا الخطاب المتالساني، الذي ننتجه يوميا ويأتي في مرتبة ثانية.

إن الرأي الشائع الذي يرى أن وصف النسق المتالساني لا يكتمل ولا يتحقق إلا بعد وصف نسق اللغة العادية غير مقبول في نظر المؤلفة، لأن الوصف الصحيح لنسق اللغة العادية، لا يتحقق إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار خطاب اللغة الواصفة "طالما أن الخلط بين اللغة، واللغة الواصفة، يولد دائما في عمق كل دراسة تنتج حول اللغة"[2].

نرى أثر هذا الموقف في المعجم والنحو، باعتبارهما الاشتغال الأمثل للخطاب المتالساني في أية لغة. فالمعجم يتعامل مع مفردات المدونة انطلاقا من المعنى والدلالة، لا باعتبار جانب العلامة والجانب المتالساني والنحو الذي تتشكل مدونته من المصطلحات الخاصة، لا يهتم بالعلامات ذاتية الإحالة (Les signes autonymiques) فكل مصطلحاته أسماء، فالفعل كلمة والحرف كلمة، والاسم كلمة، وهو ما تؤشر عليه الكاتبة بالاسمية في اللغة، حيث يتعامل مع الجملة انطلاقا من الشكل والعلامة باعتبارها لفظا أو كلمة (La phrase est un nom).

هذه المصطلحات الخاصة هي ألفاظ وعلامات تحيل على نفسها، أو على جزء من علاميتها، فعندما نقول "دخل فعل ثلاثي"، ف "فعل ثلاثي" تحيل إلى جانب الشكل في "دخل".

ليست اللغة الواصفة إذن مجرد معجم خاص، يمثل حقلا معرفيا خاصا، وممارسة لغوية خاصة، ويوجد لاحقا وبمعزل عن معاجم اللغة العامة، أو يُصنَّف مثلما تُصنَّف معاجم التخصصات والحقول المعرفية الخاصة، كمعجم الطب أو معجم السينما، أو معجم الجغرافيا "إن معجم اللغة الواصفة يغطي كل مدونة اللغة"[3].

1- Ibid, p : 2.

2- Le métalangage, ibid.

3- Le métalangage, p :3.

ونسق اللغة الواصفة، يجب أن يُدرَسَ لذاته، لا أن يكون مجرد نسق تابع لمعجمية النحو أو اللسانيات، بمعنى أن اللغة الواصفة لها قوانينها الخاصة، التي تحكمها وتفسر اشتغال عناصرها "الأمر يتعلق إذن بالكشف عن القوانين، التي تنظم خطاب اللغة الواصفة، والتي تختلف عن قوانين اللغة العادية.

تقول المؤلفة في هذا الصدد: "إن هدف هذا المشروع هو إتمام الوصف اللساني لنسق لغة معينة، هذا النسق ينتهي، حيث تبتدئ اللغة الواصفة، ولكنه يذهب إلى ما أبعد من ذلك، حيث يصبح اكتشاف القوانين والقواعد المتحكمة في اللغة الواصفة أمرا ضروريا للحكم على مقبولية الجمل المتالسانية، (وهي جمل تنتمي إلى اللغة العادية)، بل أكثر من هذا لتأكيد مصداقية النظريات اللسانية"[1].

ترتكز اللغة الواصفة، باعتبارها نسقا لغويا، لا باعتبارها حقلا دلاليا، على هذه الظاهرة اللغوية، التي هي "ذاتية الإحالة" (Autonymie)، أي قدرة العلامة على أنْ تنعكس على نفسها، وهي الوظيفة الانعكاسية (Réflexive) التي تحرك اشتغال العلامة، وتحاصر الترادف. ولا مجال للحديث عن الترادف في هذا المستوى الواصف.

"فضرب فعل ثلاثي" و "ضرب كلمة"، ولا علاقة ترادف بين الجملتين، وإن كانت المؤلفة في فصول لاحقة من الكتاب ستفصل في هذه الانعكاسية (La réflexivité) وهذه المرجعية الذاتية (Autoréférence).

إن اللغة الواصفة (Métalangage) لا تصف فقط النسق اللغوي الذي تنتمي إليه، بل إنها تتخذ موضوعا لها كل العلاقات والدلائل في كل اللغات الطبيعية والاصطناعية أي أنها تصف كل العلاقات، سواء التي تنتمي إلى نظامها الخاص أو تلك التي تتجاوز الكفاءة اللسانية لمتكلميها.

فشساعة الإشكالات التي تطرحها اللغة الواصفة، والتي تحيل إلى فروع معرفية كثيرة، يوسع حقل الأبحاث، حيث لا تقتصر على مجرد الوصف البسيط للنسق المتالساني للغة معطاة، بل إن دراسة اللغة الواصفة سيجعلها تندرج في إطار اللسانيات العامة وفي إطار سيميائية اللغة.

[1]- Ibid, p : 3.

3- الخلفية الفلسفية والمنطقية لإشكالية اللغة الواصفة :

3-1- تاريخ الإشكالية:

إن الوظيفة الأساسية لفلسفة اللغة المعاصرة هي مراجعة الخطاب الفلسفي، فهي خطاب على خطاب، إنها فلسفة واصفة (Métaphilosophie).

لقد أثبتت الفلسفة المعاصرة "أنّ أغلب قضايا وإشكالات الفلسفة خاطئة وفارغة من المعنى، لأنها تنطلق من سوء فهم لمنطق اللغة، وبالتالي فإن الوظيفة الأساسية للنشاط الفلسفي هي نقد اللغة، فكل فلسفة هي نقد لساني"[1].

لهذا اعتبرت الذرية المنطقية أن الموضوع الأمثل للفلسفة ليس هو الوجود، ولكنه الخطاب، تذوب المشاكل الأنطولوجية ليبقى السؤال اللساني..

ولما كانت النظريات العملية تعالج الواقع، فإن الموضوع الأساسي للفلسفة هو إنشاء خطاب حول هذا الواقع. "لقد تمّ فهم الكائن، والاقتراب منه وإدراكه في إطار الانشغال بنظرية اللغة"[2].

إن الواقع خارج لساني لم يعد مناط التفكير مع الذرية المنطقية، لا تستدعيه الفلسفة إلا باعتباره مرجعا ضروريا للخطاب، وضرورته تبررها الوظيفة الإشارية للغة، فاللغة في نهاية الطريق، تشير إلى الأشياء وتعينها.

والأكيد إن الموضوع الأمثل للذرية المنطقية ليس هو الوجود، ولكنه الخطاب، أصبحت الإشكالات الوجودية إذن إشكالات لغوية. ولما كانت التخصصات العلمية تدرس الواقع، فإن الموضوع الأساس للفلسفة العلمية، كنشاط لاحق للعلم، هو دراسة الخطاب المنتج حول هذا الواقع.

رفض "فنجشتاين" (wittgenstein) في كتابه المؤسس "الرسالة المنطقية الفلسفية" الاعتراف بمشروعية اللغة الواصفة، وبقي وفيا لهذا الموقف حتى النهاية، ولكن هذا الرفض لا يتناقض مع إيمان "فنجشتاين" بالوظيفة المتالسانية للنشاط الفلسفي. إن اللغة الواصفة، التي يرفضها "فنجشتاين" هي لغة واصفة ذات أبعاد ميتافيزيقية، إنها اللغة الواصفة، التي تتحدث عن جوهر وماهية اللغة، فهي تتحدث بتناظر مورفيمي (Isomorphisme) عن العالم، إنه الخطاب الميتافيزيقي، وإنها اللغة الواصفة الميتافيزيقية التي تحمل اللغة أكثر مما تحمل.

1- Pour une métaphilosophie du langage, Guilbert Hottois, Paris, librairie philosophie, J, Vrin 1981, p :27.

2- Ibid, p :32.

وإلغاء اللغة الواصفة الميتافيزيقية وإقصاؤها يعيد إلى الأذهان الموقف الرافض للوظيفة المرجعية للفلسفة، لا مرجع للفلسفة خارج العالم، وكل فلسفة تحنّ إلى الخطاب الميتافيزيقي الواصف مرفوضة.

هذا ما يوضحه "فنجشتاين" في الرسالة المنطقية، ولهذا اعتبرت الرسالة رافضة ومجردة من المعنى. إن الإشكال الأساسي الذي تطرحه الرسالة، هو معرفة الفرق الأساسي بين القضايا المنطقية، والقضايا اللغوية.

للإجابة عن هذا السؤال أسّس "فنجشتاين" نظرية شاملة حول اللغة، حاول من داخلها تحديد ماهية القضية، أي الملفوظات الخبرية "إنه يتفق مع "راسل" (Russel) الذي ينظر إلى القضية، على أنها قضية بسيطة، هي بنية علائقية"[1].

يرى "فنجشتاين" أن الخصائص الرمزية في النسق اللغوي تـُكتشف من خلال هذه الرمزية نفسها، ولسنا بحاجة للغة واصفة، تأتي في درجة ثانية لتدرس اللغة الطبيعية، وتفحص قوانينها ومفاهيمها.

"إن صياغات متالسانية مثل "ب هو المحمول" أو " X متغير فردي"، هي صياغات فارغة من المعنى بالنسبة ل"فنجنشتاين" "[2].

هذا الموقف الراديكالي ل فنجشتاين" من الرمزية، يفسر في الرسالة المنطقية برفض أيّ خطاب حول اللغة، فلا وجود إلا للغة الطبيعية، ولا وجود للغة أخرى تحاول أن تصف خصائصها.

لا يتناقض "فنجشتاين" عندما يرفض اللغة الواصفة ذات الطابع الميتافيزيقي، ويدافع في الوقت نفسه عن الوظيفة المتالسانية للفعل الفلسفي، ولفعل الكلام.

إن الوظيفة المتالسانية، ككفاءة طبيعية محايثة للفعل اللغوي، أمر مقبول في فلسفة "فنجشتاين"، فأنْ يُراجع المتكلم خطابه بالنقد والتفسير والتأكيد هذا لا يوقعنا في متاهة الميتافيزيقا، ولكن أن تنبري الخطابات المعرفية والفلسفية لتـُخرج اللغة عن حدود العالم، التي هي حدود منطقية صارمة، هذا فعل أجدى منه وأبلغ منه استدعاء الصمت.

لقد رفض "فتجنشتاين" أيّ تحليل لغوي، أو أيّ خطاب يضع نفسه خارج اللغة وفوقها، وأكّد استحالة وصف اللغة من الخارج، لأن اللغة شاملة، فلا يعقل، ولا يتصور، أن يكون هناك وضع، نكون فيه وراء اللغة لوصف اللغة. كما ينبغي التسليم في فلسفة

---

[1]- La philosophie du langage au XX° siècle, Diego Marconi, Traduit de l'Italien par Michel Velensi- éditions de l'éclat- Paris 1997, p :36.

[2]- Ibid, p : 44.

"فتجنشتاين" بكون العلاقات الدلالية التي تضبط توافق اللغة مع العالم، هي دوما "مستويات غير قابلة للقول" لأنها مقتضيات موجودة سلفا.

هكذا إذن، فكل النظريات الفلسفية واللسانية، التي تدعي الانتماء إلى حقل اللغة الواصفة، وتريد بناء خطاب حول اللغة، ليست إلا ضربا من العبث في نظر "فتجنشتاين". لأن كل نظرية لسانية حول اللغة، ليست لغة ثانية، بل هي اللغة الطبيعية نفسها وقد وسّعت طاقة إمكاناتها، ووسّعت حقل رؤيتها.

تتمتع اللغة الطبيعية عند "فتجنشتاين" بنوع من الاكتمال، يغنيها عن كل مساعدة خارجية، قادمة من لغة أخرى، أعلى منها رتبة ودقة.

هذا الإيمان بقدرة اللغة الطبيعية على مراجعة نفسها، وكون الآلية المتالسانية محايثة للنسق اللغوي الطبيعي، هو الموقف الذي تتبنّاه الكاتبة "ري ديبوف" في كتاب "اللغة الواصفة"، وتزيد على موقف "فتجنشتاين" أو هي تخالفه، عندما تؤمن بوجود خطاب واصف يتموقع في مستوى أعلى من اللغة الطبيعية، هو خطاب النظريات اللسانية، والخطاب الناقد للنظريات اللسانية..

تفتح "ري ديبوف" تراتبية للخطابات واللغات الواصفة، خطاب فوق خطاب فوق خطاب، ولغة فوق لغة فوق لغة... إلى مستويات أعلى تجريدا وصورية.. وإنْ ظلّت المؤلفة، في نهاية المطاف، وفية للغة الواصفة، كإمكانية طبيعية، يسمح بها نسق اللغة العادية.

لقد ألهم "فتجنشتاين" – بطرحه لإشكالية اللغة الواصفة في نسقه اللغوي– المناطقة والفلاسفة من بعده، فأعادوا مناقشة القضية من زوايا ورؤى مختلفة. وكان موقفه الرافض للغة الواصفة الميتافيزيقية أحد الأسباب، التي نمّت الخلاف بينه وأصحاب الوضعية المنطقية الجديدة. ف"كارناب" (Carnap) الذي يعدّ من أبرز أقطاب "حلقة فيينا"، لم يكن يرى مانعا من الدفاع عن وجود لغة واصفة.

قدم "كارناب" في كتابه "التركيب المنطقي للغة" (Logical syntax of language) تصوّرا مخالفا لـ"فتجنشتاين"، بيّن فيه أنه من الممكن صياغة تركيب لغة ما على نحو دقيق مضاه للهندسة، يصاغ هذا التركيب داخل لغة واصفة "تختزل اللغة الثانية، التي هي اللغة الواصفة، اللغة الأولى وتشملها"[1].

إن القفزة النوعية التي أنجزتها الوضعية المنطقية هي الانتقال من النمط الموضوعي للخطاب إلى النمط المتالساني الخالص النحوي. والأنموذج (Paradigme) الذي يحكم هذا التحول، هو نموذج صوري تجريدي واصف، فعوض أن نقول "إن الأحمر خاصية" نقول: "الكلمة أحمر هي صفة أو كلمة جملية "Prédicatif" ".

[1]– Logical syntax of language, Rudolf Carnap, The international Library of philosophy- Founded by. C.K, Ogden, p: 83.

" لقد عملت الوضعية المنطقية على تطوير أساسيات الذرية المنطقية، فقدمتها في شكل متالساني أكثر انفتاحا، حتى غدا البحث في الفلسفة مجرد تحليل خالص للغة"[1].

تتحدد إذن الخلفية التاريخية لإشكالية اللغة الواصفة في كتابات المناطقة وفلاسفة اللغة، خاصة مناطقة "حلقة فيينا" (تارسكي وكارناب) ما بين 1931 و 1947. لقد بيّن "كرناب" في كتابه "التركيب المنطقي للغة" كيف أنّ نظريته مستوحاة من الرياضيات الواصفة (Métamathématique) عند "هلبير" (Hilbert)، ومن "المنطق الواصف" (Métalogique) عند "أجيكيويكز" (Adjukiewicz). ووجد اللسانيون أنفسهم إزاء مفهوم لا ينتمي إلى حقل اللسانيات، ولم يظهر إلا متأخرا في الأعمال النظرية للسانيين مناطقة أمثال "كارناب"، ولسانيين رياضيين من أمثال "هاريس" (Harris).

"بل إن الاهتمام باللغة الواصفة يمتدّ إلى فلاسفة القرن الخامس والسادس ما قبل الميلاد. فقد تحدث "بانيني" (Panini) في القرن السادس قبل الميلاد عن العلامات المتالسانية، والعلامات ذاتية الإحالة، وأشار "فورفوريوس" في "محاورة إيساغوجي" إلى نظرية الموضع المزدوج للغة"[2].

وفي القرن التاسع عشر، أصبحت إشكالية اللغة الواصفة محور الاهتمام، وأعيدت صياغة المفهوم بصورة أكثر تجريدا، ضمن إبستمولوجيا العلوم المنطقية والرياضية، فمنذ أعمال "بول" (Boole)، أصبح المنطق جزءا لا يتجزأ من الرياضيات، بل إن "فريج" (Frege) و"هلبير" اختزلوا الرياضيات في المنطق، لهذا نعتوا بالفلاسفة الاختزاليين.

"إن الرياضيات الواصفة عند "هيلبر" (Hilbert) هي لغة منطقية، تهدف إلى تقييم الرياضيات والبرهنة على عدم تناقض مبادئ الجبر والحساب انطلاقا من إثبات الانسجام الداخلي للبنيات المنطقية الرياضية".

كان "هيلبر" يبحث في أصول الرياضيات من اتجاه آخر هو الاتجاه الصوري (Le formalisme) الذي يذهب إلى أنّ قضايا الرياضيات صيغٌ متفق على معاني رموزها، دون أن تكون لها مدلولات خارجية.

---

[1]- La philosophie du langage au XX° siècle, p : 37.

[2]- Le métalangage, p :5.

"انصبّ منظور "هيلبر" على المفاهيم والتصورات الرياضية، والفهم الصوري لها، على أساس نسق من البديهيات، يتوافر فيها الاتساق والكفاية، والاستقلال وخصائص الاكتمال الأخرى، التي تتحدد في مبحث ما بعد الرياضيات (Métamathématique)"[1].

وفي بداية القرن العشرين، وجدت النظرية الاختزالية أكبر تجسيد لها في المبادئ الرياضية ل "هوايتنغ" (Hwaithing) و"راسل"، وفي سنة 1924 حاولت "حلقة فيينا" متمثلة في الوضعية المنطقية بناء لغة موحدة بين العلوم.

لقد أدت دراسة هؤلاء الفلاسفة للغة المنطق والرياضيات للكشف عن مظاهر لسانية: البنيات التركيبية مع "كارناب" (Carnap) والدلالية مع "تارسكي" (Tarski) والتداولية مع "موريس" (Maurice). هكذا أصبحتْ اللغة الواصفة هي الرؤية اللسانية المشتركة بين الرياضيات والمنطق واللغات الطبيعية.

وأثارت اللغة الواصفة إشكالات كبيرة، "تتعلق بالخلط واللبس الذي يطال علامات اللغة-الموضوع (Langage-objet)، عندما تحمل هذه العلامات في اللغة الواصفة معاني جديدة، باعتبارها علامات دالة على علامات أخرى، بمعنى أنها لا تحيل إلى أشياء العالم الخارجي"[2].

لقد أصبح المرجع داخل اللغة، لا خارجها، وهنا أثيرتْ قضية الدلالة والإحالة في فلسفة اللغة. إن الخلط بين الدلالة والإحالة والمرجع قد يقود إلى أخطاء نظرية وإلى تناقضات دلالية ولغوية.

وصاغ "فريج" ولاحقوه نظرية لغوية واصفة خالصة، من خلال صورنة النسق الواصف، والتشديد على استعمال الرموز المميزة للعلامات "ذاتية الإحالة"، لتمييزها عن باقي علامات اللغة-الموضوع.

و"كان "كارناب" في كتابه "التركيب المنطقي للغة" أول من نبّه، إلى الغموض الذي يمكن أن يحدث بين العلامات اللغوية العادية، والعلامات ذاتية الإحالة، ولهذا ألحّ على ضرورة استخدام المزدوجتين، أو الاعتماد على محددات صارمة، لتمييز هذا المستوى اللغوي الواصف عن غيره"[3].

ارتبطت أزمة الأسس في الرياضيات بإشكالية "المرجعية الذاتية" (Autoréférence) والتي تعتبر قضية محورية في اللغة الواصفة، وبكل التناقض اللفظي، الذي سيتناوله "هلبير" ضمن ما يعرف ب"مفارقة الكاذب" (Le paradoxe du menteur). "إن ما تراهن عليه الرياضيات والمنطق هو أن كل نسق يحتوي على

1- فلسفة العلم في القرن العشرين- الأصول- الحصاد- الآفاق المستقبلية، يمنى طريف الخولي- عالم المعرفة- العدد 264، ديسمبر 2000، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

2- Le métalangage, p :7.

3- Le métalangage, p :7.

قضايا ومعادلات، غير محسوم في أمر صدقها، هذه القضايا تحيل على نسق خارجي أكثر تماسكا وقوة إقناع"[1].

فمن الصعوبة البرهنة على عدم تناقض النسق، من داخل النسق نفسه، إذ كل نسق يفترض نسقا أعلى منه، فكل نسق يبرهن على مشروعيته وصدقه، في نسق أعلى منه، هو ما يسميه "تارسكي" باللغة الواصفة. يقول: " لطالما كان من الأنسب عدم استعمال اللغة كنسق مغلق دلاليا، لم يبق أمامنا إلا أن نستعمل لغتين مختلفتين كي نستطيع تعريف الصدق، وبصورة أكثر شمولا حتى نتمكن من مناقشة كل إشكال يتعلق بالدلالة"[2].

هكذا إذن، أصبح لمفهوم "اللغة الواصفة المعاصرة" أهيمة قصوى على المستوى الإبستمولوجي. فالبحث في معيار صدق الأنساق وحقيقتها ومصداقيتها، ودقتها، لا يكشف عنه إلا في مستوى أعلى، هو المستوى الواصف، والذي سنتطرق إلى صفاته وخصائصه فيما بعد.

3-2- اللغة الواصفة المنطقية (Le métalangage logique):

التعريف المنطقي للغة الواصفة، ينطبق أساساً على اللغات الصورية، ينطلق هذا من مسلمة أساسية في المنطق المعاصر، ترى أن كل لغة كنسق مغلق، لا يمكنها أن تبرهن على تماسك نسقها وقوته، دون أن تسقط في التناقض، لذا فإن مهمة إثبات قوة النسق وانسجامه، والتأكد من صدق جمله وقضاياه موكولة إلى خطاب لغوي أرقى من النسق نفسه.

إن هذه اللغة الثانية حسب "تارسكي" هي اللغة التي نتحدث بواسطتها عن اللغة الأولى يقول: "اللغة الأولى هي اللغة التي سنتكلم عنها، وهي موضوع كل دراسة. إن تعريف الصدق الذي نبحث عنه، يتعلق بقضايا اللغة الثانية، وهي اللغة التي نستعملها في الحديث عن اللغة الأولى، وسنستعمل مصطلحاتها لصياغة تعريف الصدق في اللغة الأولى، نسميّ اللغة الأولى "اللغة- الموضوع" (Langage-objet)، ونسمي الثانية "اللغة الواصفة" (Métalangage)"[3].

1- Ibid, p :7.

2- Logique, sémantique, mathématique, Alfred Tarski, Traduction sous la direction de Gilles Granger, librairie Armond colin 1974, Tome 2, p :279.

3- Ibid, p :279.

وليس بالأمر المستغرب أن تقتبس اللغة الواصفة، مصطلحات وتراكيب اللغة-الموضوع، لكنها ينبغي أن تكون أكثر ثراء وغنى منها، "إن ثراء اللغة الواصفة شرط أساسي لكي يكون تعريف الصدق فيها ممكنا"[1].

3-3- وظائف اللغة الواصفة المنطقية ومميزاتها:

لا ينظر المناطقة إلى اللغة الواصفة على أنها خطاب يناقض، أو يعارض اللغة-الموضوع، بل على أنها لغة ثانية تشمل اللغة الأولى. ويرتب المناطقة اللغات: "ن" لغة أولى، "ن+1" لغة واصفة أولى، (وتشمل جمل وقضايا اللغة الموضوع، وبالتالي فهي تحتوي على أسماء الجمل، وعلى الجمل ذاتية الإحالة، "ن+2" (لغة واصفة ثانية..)، وهكذا.

يقول "تارسكي": "تنبغي الإشارة إلى أنّ لمصطلحات "اللغة-الموضوع" و"اللغة الواصفة" معنى نسبي، فإذا كنا مثلا نبحث في صدق القضايا، التي تنتمي إلى اللغة الواصفة، فإن هذه الأخيرة ستصبح لغة موضوعا لبحثنا، ومتى ما أردنا بحث الصدق في هذه اللغة الواصفة، فسنحتاج إلى لغة واصفة جديدة، من درجة أرفع وفي مستوى أعلى، وهكذا نصل إلى تراتبية في اللغات"[2].

إن جملة (تمطر إذا وفقط إذا كانت تمطر) جملة متالسانية، معلقة بين نسقين سيميائيين: نسق اللغة "تمطر" كملفوظ لغوي (Enoncé linguistique)، ونسق العالم، أي إحالتها على العالم الخارج لغوي.

إن البحث في المرجع والدلالة والصدق والحقيقة، كانت وراء ظهور إشكالية اللغة الواصفة في المنطق وكلها قضايا بعيدة عن انشغالات اللساني، الذي يهتمّ أساسا بمقبولية الجمل (Acceptabilité des phrases)، "فالأمر لا يتعلق، بما إذا كانت تمطر جملة صادقة، بل إذا ما كانت جملة مقبولة"[3].

يصف "تارسكي" اللغة الواصفة المنطقية، بأنها مجموعة من الرموز، تخضع لنفس قواعد الكتابة المنطقية في "اللغة-الموضوع". وهذه الرموز مشتركة في المنطق ولغته الواصفة (تعابير منطقية ذات نظام عام مثل: الرموز: = و c و ≤...). ثم هناك رموز خاصة، هي أسماء الموضوعات التي تعالجها اللغة (وتوضع بين مزدوجتين).

تثير اللغة الواصفة بمصطلحاتها كثيرا من الغموض، فمصطلح "اللغة - الموضوع" (Langage-objet) يحيطه كثير من اللبس عند المناطقة لمرونته الدلالية. ففي حين يستعمله "كارناب" في مقابل اللغة الواصفة، يحدده "راسل" بصورة مختلفة

---

[1]- Ibid, p :281.

[2]- Logique, sémantique, mathématique, p :279.

[3]- Le métalangage, p :14.

تماما، إذ اللغة الموضوع عنده، هي كل لغة تحتوي على كلمات دالة على الأشياء، وهي لغة أولية عند "راسل"، حيث تحيل الكلمات على الأشياء المحسوسة المادية. و" "راسل" يشير ضمنا، إلى وجود لغة واصفة، طالما أنه يميز بين لغة أولى، مرتبطة بالموضوعات المحسوسة ولغة ثانية هدفها دراسة اللغة الأولى"[1].

وتتبنى "جوزيت ري ديبوف" مفهوم "كارناب" عن "اللغة-الموضوع"، مع جعل المصطلح يتحلى بمرونة أكثر، لأن اللغة الواصفة نفسها، قد تتحول إلى لغة-موضوع للغة ثالثة، هي لغة واصفة من الدرجة الثالثة، كما أشرنا فيما يتعلق بتراتبية الأنساق اللغوية الواصفة عند "تارسكي".

3-4- التركيب عند "كارناب" وعلم الدلالة عند "تارسكي":

اهتمّ المناطقة أحيانا ببنيات الجمل المنطقية بمعزل عن تغيراتها، وأحيانا بدلالتها مع متغيراتها.

قدّم "كارناب" في كتابه "التركيب المنطقي للغة" وصفا صوريا لجمل "اللغة-الموضوع" المنطقية والرياضية. إن الفلسفة المعاصرة ليست شيئا آخر غير منطق العلم، منطق العلم أيضا ليس شيئا آخر غير التركيب المنطقي للغة العلمية.

وقد درس "كارناب" "علم التركيب الخالص" (La syntaxe pure) بمعزل عن الجمل المحينة (التركيب الوصفي)، كما درس "التركيب الدلالي" (la composante sémantique)، وهكذا تتقارب أبحاثه مع أبحاث "تشومسكي" في كتابه "مظاهر النظرية التركيبية" (Aspects of theory of syntax).

حاول "تارسكي" أن يقدم "علم دلالة ما صدقي" (sémantique extentionnelle) يعالج من خلالها "التعيين" (désignation) و"الاستيفاء" (satisfaction) و"تعريف الحقيقة" (الصدق). يتعلق الأمر بدراسة العلاقات بين التعابير المنطقية والموضوعات أو حالات الأشياء المتعيّنة، أي دراسة أسئلة الدلالة، بعيدا عن "علم الدلالة الوصفي" (La sémantique descriptive) في اللسانيات.

تتمثل الحقيقة عند "تارسكي" في مجموع الحقائق الجزئية التي سيعاد بناؤها، وفقا لمنطق اللغة الواصفة، بواسطة مفاهيم "الاستيفاء" و "الإحالة" و"الصدق". وخلاصة القول أن الحقيقة لا تتحدد في اللغة-الموضوع، بل في لغة أخرى أرقى منها.

إن الجدل الدائر حول إشكالية اللغة الواصفة، يكشف عن سوء خلط بين اللغات الصورية المنطقية والرياضية وبين اللغة الطبيعية.

---

[1]- Le métalangage, p :15.

فالجمل اللسانية والقضايا اللغوية لا علاقة لها بالصدق الذاتي أو الموضوعي، لأنه إذا تعلق الأمر بالصدق الذاتي فالحقيقة قيمة متغيرة تتدخل فيها شروط وقواعد الدلالة، وذات التلفظ ووضعية التواصل.

"لا تستطيع اللغة الواصفة للغات الطبيعية في صورتها العلمية، أن تقرر بخصوص الصدق في قضايا اللغة، والدليل على هذا تنوّع النظريات اللسانية والاختلافات التي تثيرها"[1].

أما اللغة الواصفة الطبيعية العادية، التي يتداولها المتكلم في خطابه اليومي، فإنها مثلها في ذلك مثل اللغة العادية، تقول الصدق والخطأ، وتقع في التناقض، وتصبح في أحيان أخرى تحصيل حاصل (Tautologie).

"إن "اللغة الواصفة" ليست خطابا يقول الصدق حول اللغة، وإذا تبدّى أنها يمكن أن تضطلع بهذه المهمة فلأنها في النهاية خطاب حرّ حول اللغة"[2].

4- اللغة الواصفة الطبيعية واللغة الواصفة المصورنة (Métalangage naturel et métalangage formalisé):

تميّز المؤلفة بين مفهومين أساسيين يتداخلان كثيرا، وبينهما كثير من نقاط التلاقي وأوجه التشابه، هما "اللغة الواصفة الطبيعية" و"اللغة الواصفة المصورنة".

اللغة الواصفة الطبيعية هي إمكانية تلقائية محايثة للغة الطبيعية، إنها الكفاءة المتالسانية، التي يمتلكها كل متكلم عادي للغة، يحينها ويوظفها في خطابه اليومي، لها ما للغات الرمزية المنطقية من قوة الاستدلال والرمز، وذلك بالرغم من الاختلاف القائم بينهما.

ويبدو أن "ري ديبوف" تتساهل كثيرا في استخدام مصطلح "اللغة الواصفة"، حين توسع حقل استعماله، ليصبح آلية من آليات الاستدلال والمراجعة والانعكاس في اللغات الطبيعية.

ثم هناك اللغة الواصفة المصورنة، وتطلق على كل الخطابات العلمية التي تتخذ اللغة الطبيعية موضوعا لها، ويمثلها أفضل تمثيل خطاب اللسانيات.

تكتسب اللغة الواصفة، التي تتخذ اللغة الطبيعية موضوعا لها، نفس خصائص النموذج السيميائي لـ"اللغة الواصفة المنطقية" (métalogique)، و"اللغة الواصفة

1- Le métalangage, p :16.

2- Ibid, p : 16.

الرياضية" (métamathématique). ويقدم النحو التوليدي النموذج الأمثل لهذا المستوى اللغوي الواصف، بصورنته واشتقاقه للقضايا، الواحدة من الأخرى"[1].

لكننا إذا نظرنا إلى اللغة الواصفة، باعتبارها إحدى وظائف اللغة الطبيعية، فسنبتعد كثيرا عن النموذج المنطقي والرياضي. "لأن هذه اللغة الواصفة، لن تكون إلا صورة من اللغة الطبيعية، بكل غموضها، وأشكال اللبس فيها، وبعدم دقتها ونسبية يقينيتها"، لأن الوظيفة المتالسانية التي تمثل هذا المستوى، ليست إلا خطابا علميا، حتى عند اللسانيين أنفسهم، بل هي إحدى وظائف اللغة الطبيعية.

أما الإشكال الذي تطرحه اللغة الواصفة المصورنة، فهو أكثر تعقيدا، لأنها على المستوى الإبستمولوجي لا تشبه اللغة الواصفة المنطقية ولا الرياضية، هاتان الأخيرتان، تهتمان باللغة الاصطناعية، التي ترتكز بدورها على اللغة الطبيعية، ما يعني أن اللغتين الواصفتين المنطقية والرياضية تتموقعان بعيدا عن اللغة الطبيعية في مستوى ثالث أكثر تجريدا وعلمية ورمزية. في حين تهتمّ اللغة الواصفة المصورنة (الخطاب اللساني أنموذجا) مباشرة باللغة الطبيعية.

تبيّن إذن أن اللغة الواصفة المنطقية والرياضية أكثر تجريدا وإغراقا في العلمية والرمزية، وأكثر ابتعادا عن الوقائع العينية المحسوسة، بيد أن هذا الإغراق في الوقائع العينية المحسوسة هو عين الأمر الذي تفترضه اللغة الواصفة الطبيعية، باعتبارها خطابا حول اللغة العادية، التي تتأسس من وقائع مسيقة، ومقامات تداولية، ويتلبّسها الغموض بشكل كبير.

اللسانيات هي اللغة المصورنة الأولى، في نسق تراتبية اللغات المصورنة، وتستدعي لغة مصورنة ثانية لفحص درجات التماسك والدقة فيها. "ولا نعتقد أنه يوجد خطاب من هذا النوع، فهو اللغة الطبيعية التي تضطلع بمهمة مراجعة اللغة المصورنة "واصفة اللغة الواصفة" (métamétalangage)"[2].

أما اللغات الصورية المنطقية (اللوجستيك) فهي لغات اصطناعية، نقية، خالية من الغموض واللبس، تتميز بالبساطة والوضوح والشمولية، و"لهذا فإن الخطاب المنتج حول هذه اللغات، وهو خطاب اللغة الواصفة للمنطق (la métalogique) خطاب واحد غير متنوع يتميز بوحدة موضوعه"[3].

لقد اصطنع المنطق لغة رمزية، مبرّأة من عيوب اللغات الطبيعية، وتجنّب الخلط والإبهام وعدم دقة التعبير والمراوغة في المعنى الكامنة في اللغة الطبيعية. "إن وصف

1- Le métalangage, p : 7.

2- Le métalangage, p :8.

3- Ibid, p :8.

اللغة يكون دقيقا واضحا، إذا كانت هذه اللغة نسقية خالصة أي إذا كنا نستعمل في هذا الوصف فقط، مفاهيم تعالج الشكل، ونظام العلامات والتعابير التي تؤلف هذه اللغة"[1].

هنا نقطة اختلاف جوهرية، تفصل اللغة الواصفة المنطقية-الرياضية عن اللغة الواصفة اللسانية. إن موضوع الخطابات اللسانية المباشرة هو اللغات الطبيعية، وبالتالي فإن الخطاب يلتبس بخصوصية اللغة التي يصفها، ويأخذ صفاتها، وخصائصها. وهذا ما يجعلنا نحصل على لغات واصفة بعدد اللغات الطبيعية. حتى إذا أرادتْ هذه اللغة الواصفة اللسانية أن تصبح شمولية عليها أن تؤسس أولا نماذج صورية كلية للغات، وهذا لم يتحقق بعد، ثم إن اللسانيات ما زالت لم تغط بعد كل موضوعها.

تتنوع مناهج وصف اللغات، كما تتنوع النظريات اللسانية، بحسب الأهداف، ونسق المصطلحات، مما يخلق لغات واصفة متنوعة بتنوّع اللغات وتنوع النظريات اللسانية. أما اللغة الواصفة الطبيعية فهي وظيفة متالسانية يمارسها متكلم اللغة العادي. "وهي لغة لها كل عيوب اللغة العادية وامتداداتها، إنها تتحدث عن اللغة وتصفها، بالطريقة نفسها التي تتحدث بها اللغة العادية عن العالم"[2].

وتضطلع هذه اللغة الواصفة الطبيعية بوظيفة أصلية، هي وظيفة انعكاس اللغة على نفسها، عندما تراجع نفسها، وهي وظيفة الخطاب العادي، الذي ليس خطابا علميا بالضرورة. وإن كانت "ري ديبوف" لا تنفي عنه صفة العلمية. إنها وظيفة محايثة للغة، تقرن الكفاءة المتالسانية بالكفاءة اللسانية، وتبحث المؤلفة كيف تشتغل هذه الكفاءة؟ وما هي إجراءاتها وآلياتها؟ تحللها بالمناهج اللسانية، ومن داخل الرؤية اللسانية، حيث تستوعب اللغة في مستوى أعمق من اللغة نفسها، وتراجع نفسها وتنعكس على نفسها.

5- السيميائيات الواصفة (La métasémiotique):

طور "هلمسليف" (Hjelmslev) في كتابه "مقدمات في نظريات اللغة" -الذي يعتبر مفتاح البنيوية الأوروبية في القرن العشرين- نظرية سماها "الكلوسيماتيكية" تقوم أساسا على الخاصية الشكلية للغة.

إن اللسانيات عند "هلمسليف" هي العلم، الذي يدرس المقولات التي تمثل الخاصية الثابتة للغة.

لقد أسّس تراتبية في التحليل، تقوم على مبدإ دينامي أساسي، يجعل هذه التراتبية خاضعة، لنوع من الازدواجية، في كل مراحل التحليل. عدّل "هلمسليف" ثنائية

1- La construction d'une sémantique scientifique, in : « logique, sémantique, métamathématique », Alfred Tarski, p : 134-135.

2- Les logiciens et le métalangage naturel, Josette Rey- Debove, Revue Histoire, épistémologie, langage, année 1979, Vol 1, N°1, p :2.

"دو سوسير" "لسان / كلام" بثنائية "نسق / نص" (Texte/Système)، وسماها ثنائية سيميائية.

ويقوم نموذج التحليل، في النظرية الشكلية، على مستويين: مستوى التعبير، ومستوى المحتوى، يخضع لهما النسق والنص، أو اللسان والكلام.

تدرس هذه السيميائيات العلامة، كحاصل اجتماع مجموعة من الأشكال، في مستويي التحليل: شكل التعبير ومادة التعبير، وشكل المحتوى ومادة المحتوى، وتدرس العلامة في سيرورات إنتاجها، وتسنينها وتواصلها.

وتتجلى اللغة الواصفة عند "هلمسليف" في صورتين: سيميائية الإيحاء، والسيميائيات الواصفة، وهي سيميائيات خاصة تتموضع في مستوى ثالث، تراقب مستويي الشكل والمضمون، وتزيل ما يحيط بهما من غموض. يقول "هلمسليف": "أدت التطورات الأخيرة للمنطق، كما نلحظ في أعمال البولونيين، إلى ظهور شكل من الدلالة يكون فيه مستوى المحتوى هو نفسه سيميوطيقا، وهو ما نسميه ب"اللغة السيميائية الواصفة" (Métasémiotique)، أي سيميوطيقا تتخذ موضوعا لها سيميوطيقا أخرى"[1].

يميز "هلمسليف" بين ثلاثة مستويات سيميائية، وهذه الأنساق السيميائية الثلاث، توجد في كل خطاب لغوي"[2]. فهناك:

1- سيميائية التعيين (La sémiotique dénotative): ويعبّر عنها بالصياغة التالية: E (c): تعبير في علاقته بالمحتوى،

2- السيميائيات المتالسانية (La sémiotique métalinguistique) ويعبّر عنها ب E (EC)، حيث يكون مستوى المحتوى فيها مركبا، من نسق سيميائي، يتشكّل من تعبير في علاقته بمحتوى.

3- سيميائية الإيحاء وصياغتها الرمزية هي (La sémiotique connotative) EC (C)، حيث مستوى التعبير هو المركب من نسق سيميائي، يتكوّن من تعبير في علاقته بمحتوى.

1- Prolégomènes à une théorie du langage, p :150.

2- Autonymie et réflexivité, Josette Rey-Debove, in : « Théorie du signe et du sens » Alain Rey, éditions Klincksieck, Paris ; 1976.p :224.

لقد أكد "رولان بارت" في كتابه "عناصر السيميولوجيا"[1] الأهمية القصوى لنظرية "هلمسليف"، المتعلقة بالأنساق السيميوطيقية، التي تهتمّ بالموضوعات الثقافية المركبة (الأدب، الأنساق السيميوطيقية الثقافية..) وجميعها مستوحاة من أنساق الإيحاء.

وناقش "بارت" (Barthe) في مؤلفه، المفهوم الذي يعطيه "هلمسليف" للغة الواصفة "كإجراء هدفه الوصف المؤسس على مبدإ تجريبي، وهو وصف منسجم لا تناقض فيه، شمولي وبسيط"[2]. لكنه يرفض أن يظلّ خطاب اللغات الواصفة مقتصرا على اللغات العلمية، وحكرا عليها، طالما أن اللغة الطبيعية في مستواها التعييني العباري، مكونة من نسق من الموضوعات الدالة، وهذه عبارة عن لغات واصفة.

يقدم الكاتب مثالا بمجلات الموضة، التي تتحدث عن دلالات اللباس، غير أن ملاحظة "بارت" ستفقِد اللغة الواصفة أهمّ سماتها وخصائصها، وهي الدقة العلمية والتجريد والشمول، والنـــزعة الرياضية.

ويضيف "بارت" "لا شيء يمنع أن تتحول اللغة الواصفة إلى لغة موضوع، يشملها خطاب واصف أوسع، وهذا الخطاب الواصف نفسه قد يتحول إلى لغة موضوع تشمله لغة واصفة أوسع منه وأشمل وهكذا دواليك"..[3]

وهكذا يصبح تاريخ العلوم الإنسانية – بمعنى من المعنى- سلسلة تطورية دياكرونية لخطابات اللغة الواصفة.

6- منهج المؤلفة في الكتاب :

تقترح الكاتبة "ري- ديبوف" القيام بدراسة وصفية للغة الواصفة، من وجهة نظر لسانية "لكن المناهج اللسانية التقليدية، لا تمتلك كفاءة وصفية عالية، قادرة على الإحاطة بهذا الخطاب اللغوي الواصف. فالأمر يقتضي توسيع حقل الدراسة، مما اقتضى منها "توسيع حقل الدراسة، وإعادة تأويل الأنساق اللغوية، إضافة إلى البنى"[4]. كما لا يُمكن استدعاء النظريات الصورية والرمزية المتبعة في المنطق والرياضيات لتطبيقها على اللغة الواصفة الطبيعية، لأن هذه الأخيرة تتعلق باللغة البشرية التي يميزها الغموض، واللبس، وعدم الدقة، وعدم التحديد. فكل خطاب حول اللغة، لا يحكمه معيار الصدق أو الخطأ، كقيمتين منطقيتين، بل هو خطاب تحكمه خاصية المقبولية أو عدمها. فهل تستطيع نظريات مثل "التوزيعية" و"النحو التوليدي" دراسة ووصف اللغات الواصفة؟

---

[1]- Eléments de sémiologie, in : « Le degré zéro de l'écriture », R. Barthes, Paris, éditions Gontihier.

[2]- Eléments de sémiologie, p ;167.

[3]- Ibid, p :167.

[4]- Le métalangage, p :10.

"إن النحو التوليدي لا يهتمّ بمقبولية الجمل المتالسانية لا على مستوى الوصف، ولا على مستوى الحسّ كما يتعامل مع الجمل العادية. هذه نظريات غير قادرة على وصف نسق اللغة الواصفة المتميز بكون خاصياته الرئيسة ذات طابع دلالي"[1].

ونتيجة هذا التقصير تتسلح الباحثة "ري-ديبوف" بالأداة الوصفية منفتحة على السيميائيات، خاصة سيميائيات "هلمسليف"، لتستوعب ظاهرة اللغة الواصفة في شموليتها وتعقيدها وتعدد مستويات الدلالة والتحليل فيها.

"إن نظرية لسانية متكاملة: تركيبا ودلالة وتداولا، وحدها قادرة، بانفتاحها على السيميائيات العامة، أن تمتلك كفاية وصفية لتحليل اللغة الواصفة. ونظرية من هذا القبيل لم تتأسس بعد، غير أن الأبحاث المعاصرة تسير في اتجاه بناء هذا النموذج"[2].

وتتنوع نصوص المدونة المتالسانية، إذ تشمل أعمالا أدبية، ونصوصا تعليمية وعلمية (من بينها أعمال ومؤلفات لسانية)، والنصوص المنتمية لحقل مصطلحي خاص.

ويمكن اعتبار كتاب "اللغة الواصفة" ل "جوزيت ري-ديبوف" مغامرة جريئة غير مسبوقة لاقتحام مجاهيل اللغة الواصفة، الطبيعية واللسانية. ف" "اللغة الواصفة" (Le métalangage) دراسة رائدة تكشف عن البعد السيميائي للغة، حيث تتلاقح العديد من وجهات النظر التاريخية، والإبستمولوجية، وتولد مفهوما جديدا هو "الإيحاء ذاتيّ الإحالة" (Connotation autonymique) من رحم مفهوم "ذاتية الإحالة" (Autonymie)[3].

تقول "ري-ديبوف" في هذا الصدد: "إن هذه الدراسة محاولة منهجية تقدم خطوات أولية في مشروع وصف اللغات الواصفة"[4].

(يتبع)

1- Le métalangage, p :10.

2- Ibid, p :10.

3- Pour josette Rey Debove, Simone Delesalle, Revue « Histoire, Epistémologie, Langage », Année 2005, Vol27-n°27-1. p :1.

4- Le métalangage, p :11.

بيبليوغرافيا :

- يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين- الأصول- الحصاد- الآفاق المستقبلية، عالم المعرفة- العدد 264، ديسمبر 2000، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

- Barthes R., Eléments de sémiologie, in : « Le degré zéro de l'écriture », Paris, éditions Gauthier.
- Carnap Rudolf, Logical syntax of language, The international Library of philosophy- Founded by. C.K, Ogden,
- Gombert Jean Emile, Le développement métalinguistique, presse universitaires de France, 1 ° édition 1990.
- Delesalle Simone, Pour josette Rey- Debove ; Revue « Histoire, Epistémologie, Langage », Année 2005, Vol27-n°27-1.
- Dubois jean et autres, La Rousse Grand dictionnaire linguistique des sciences du langage, 1989, librairie Larousse.
- Hjelmslev (louis), Prolégomènes à une théorie du langage, traduit de l'anglais par Anne Marie, les éditions minuit, 1971.
- Hottois Guilbert, Pour une métaphilosophie du langage, Paris, librairie philosophie, J, Vrin 1981.
- Marconi Diego, La philosophie du langage au XX° siècle, Traduit de l'Italien par Michel Velensi- éditions de l'éclat- Paris 1997.
- Neveu Frank, Lexique des notions linguistiques, édition Nathan, HER- 2000.
- Perrault Mylène, Analyse du discours métalinguistique, université de Montréal, Août 2006.
- Rey -Debove Josette, Autonymie et réflexivité, in : « Théorie du signe et du sens » Alain Rey, éditions Klincksieck, Paris ; 1976.
- Rey- Debove Josette, Les logiciens et le métalangage naturel, Revue Histoire, épistémologie, langage, année 1979, Vol 1, N°1.
- Rey- Debove Josette, Le métalangage, Le Robert, Armand colin/ Masson ; Paris, 1997.
- Tarski Alfred, Logique, sémantique, mathématique, Traduction sous la direction de Gilles Granger, librairie Armand colin 1974, Tome 2.
- Tarski Alfred, La construction d'une sémantique scientifique, in : « logique, sémantique, métamathématique ».